قصيدة في أصول فقه الظاهرية

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم

(تـ : 456 هـ)

أعدها

مصطفى الوضيفي ومصطفى ناجي

مركز إحياء التراث المغربي

الرباط

[قصيدة في أصول فقه الظاهرية] (*)

تعدى سبيل الرشد من جار واعتدى ... وضاء له نور الهدى فتبلدا
وخاب امرؤٌ وافاه حكم محمد ... فقال بآراء الرجال وقلدا
نبيٌّ أتى بالنور من عند ربه ... وما جاء من عند الاله هو الهدي
أرى الناس أحزابا وكل يرى الذي ... يجيء به المنجي وسائره الردى
وألقوا كتاب الله خلف ظهورهم ... وقول رسول الله ويلهمو غدا
وقالوا بأن الدين ليس بكامل ... وكذب ما قالوا الإله وفندا
وما فرط الرحمان شيئا ولم يكن ... نسيّاً ولم يترك بريته سدى
وقد فصل التحريم والحل كله ... وبيّن أحكام العباد وسددا
وعلّم وجه الحُكم فيما اعتدوا به ... ونصّ عليه الحُكم نصا ورددا
ولم يتعبدنا بعنْت ولم يُرد ... يكلفنا ما لا نطيق تعبدا
وحرم قول الظن في غير موضع ... وأن تقتفي ما لست تعلم موعدا
أخي عد عن سُبْل الظلال فإنني ... رأيت الهدى أهدى دليلا وأرشدا
ودع عنك آراء الرجال وقولهم ... وخذ بكتاب الله نفسي لك الفدا
وقل لرسول الله سمعا وطاعة ... اذا قال قولا أو تيمم مقصدا
أوامره حتم علينا ونهيه ... نلاقيه (1) بالأقلاع عنه مجردا
حرامٌ وفرضٌ وطاعةٌ قد تيقنت ... ومن ترك التخيير والوقف (2) سددا
فإن يبد برهان يبين أنه ... على غير ذا صرنا معا للذي بدا
وأفعاله اللّائي تُبَيِّنُ واجبا ... من الله فاحملها عليه وما عدا
على أسوة لازلتُ مُؤْتسيا به ... وليست بفرض والسعيد من اقتدا
وإقراره الأفعال منه اباحة ... لها فمحال أن يُقرَّ (3) من أفسدا
وما صح هنه مسندا قل بنصه ... وإياك لا تحفل بما ليس مسندا
وسو كتاب الله بالسنة التي ... أتت عن رسول الله تنجو من الردى

(*) هذا العنوان من اقتراحنا.

(1) وجهها أبو عبد الرحمان هكذا : «تلافيه».

(2) في المخطوط ونشرة الأستاذ الكتاني : «الوقوف» وصوبناها وفاقا لما ذهب إليه أبو عبد الرحمان

(3) في المخطوط والنشرتين : «تقرّ»

سـواء أتت نقـل التواتـر أو أتـت ... بمـا قـد روى الآحاد مثنى وموْحـدا
وقـل إنـه علـم ولا تقـل إنـه ... من الظن ليس الظن من دين أحمـدا
فكـل مـن الوحـي المنزل قد أتـى ... عن الله إن الذكـر يُحفـظ سرمـدا
وخـذ ظاهـر الألفـاظ لا تتعـدها ... الـى غايـة التأويـل تبـق مؤيـدا
فتأويلـها تحريفـها عـن مكانهـا ... ومـن حرف الألفاظ حـاد عـن الهـدى
فإن جـاء برهـان بتأويـل بعضهـا ... فألق الـى الحـق الـذي جـاء مقلـدا
وكـل عمـوم جـاء فالحـق حملـه ... علـى مقتضـاه دون أن تتـرددا
وإن جاء بالتخصيـص نص فخصـه ... به وحـده واحـذر بـأن تتزيـدا
وأخـرج قليـلا مـن كثيـر وإن بـدت ... معارضـة فاشدد علـى الزائد اليـدا
وإن صـح ما بين النصوص تعـارض ... فمنسوخهـا ما جـاء منهـن مبتـدا
وإن عُـدم التاريخ فيهـا فخـذ بمـا ... يزيد على المعهود في الأصل ترشـدا
تكـن موقنا أن قـد أطعـت وتاركـا ... لكل مقـال قيـل بالظـن مُبْعـدا
وكـل مبـاح فـي الكتـاب سوى الـذي ... يُفَصِّل بالتحـريم منـه معـدِّدا
وإن لـم يرد نـص بإلزام طاعـة ... من اللـه لـم يلزمـك أن تتعبـدا
وعنـد اختلاف الناس فالحكم راجـع ... إليـه وبالإجماع من بعـد يهتـدى
وذاك سبيـل المؤمنـين ومـن يـرد ... خلاف سبيل المؤمنـين فمـا اهتـدى
ولا تـدع الإجمـاع فيمـا جهلتـه ... ولـم تعلم التحقيـق جمـعا ومفـردا
وإن امـرؤ فـي الديـن حكـم نفسـه ... قياسا أو استحسان رأي لذو اعتـدا
فتلـك حـدود اللـه لا تعتدنهـا ... ومـن قال بالتعليل فيـه قـد اعتـدى
وجـاء بدعـوى لا دليـل يقيمهـا ... وأسـرف فـي ديـن الإلـه وألحـدا
ومـن قـال محتاطـا بردع ذريعـة ... بـرأي رآه قد أتـى اللهـو والـدّدا(4)
محـل حـرام أو محـرم ما أتـى ... بتحليله نـص الكتـاب (5) تعمُّـدا
ومن يدعى نسخا على الحكم لم يجـىء ... على ذاك بالبرهـان ليـم وقُيِّـدا (6)

---

(4) في النشرتين «الردى»

(5) رسمت الكلمتان في المخطوطة هكذا «.. صلي لكتاب» مع سقوط حرف من الأولى وبدون اكف في الثانية فوجهها الأستاذ الكتاني الى «خطى الكتاب» وأبو عبد الرحمان الى «مخط الكتاب».

(6) عند الكتاني «ليس مفندا» وأبو عبد الرحمان «ليم مفندا» وفي المخطوط «ليم وقيدا» كما أثبتنا.

(7) وجهها أبو عبد الرحمان الى «فلا تعد» بدل «إنه لا تعد».

ولا تنتقل عن حال حكم علمته ... لقول عن الإجماع والنص جردا
من الحل والتحريم أو من لوازم ... عليك أنه لا تعد (7) السبيل الممهدا
ولا تلتفت (8) حكم البلاد وجريها ... على عمل ممن أغار وأنجدا
وإن لم تجد نصا على الحكم فالتمس ... الى قصده جمع النصوص لترشدا
فتمنح حكما بينها قد جهلته ... وتجمع شملا كان منها مبددا
وذاك على معناه نص وإنه ... لحق كما لو كان نصا مجردا
وهذا الذي يُدعى اجتهادا وليس ما ... تَقَوَّلته أولو الآراء تلددا
وأثقلهم جمع النصوص فأظهروا ... على الدين نقصان النصوص تبلدا
وقالوا لنا إكماله وتمامه ... تباركت ربي أن تكون مفندا
وقد قلت إن الدين أكملته لنا ... وفصلته والحق ما قلت ممجدا
ولا تلتفت (8) عند الخطاب دليله ... ولا تلتزم شرعا سوى شرع أحمدا
فكل نبي خص إنذار قومه ... وأحمد عم الناس أدنى وأبعدا
وأخلص لدى الأعمال نيتك التي ... بها ترتقي الأعمال لله مصعدا
وصلى على الزاكي المجير عن العمى ... نبي الهدى خير الأنام محمدا
ولله حمدي سرمدا غير منقض ... على ما هدى حمدا كثيرا مرددا

يروي هذه القصيدة أبو الوليد سعد السعود (9) أحمد بن عفير. قال : أنشدنيها الفقيه.. ؟ (10)

---

(8) وجهها أبو عبد الرحمان الى «ولا تلتفت» في الموضعين.
(9) في المخطوط «السعودي» وصوابه من الذيل والتكملة ج 4، ص 18.
(10) هكذا ينتهي الموجود من المخطوط.